

## دعوة للسخرية

نحتاج إلى شيء من العبث

هيثم الزبيدي  
كاتب عراقي

خطاب الأيديولوجيا الذي قطع علينا كل المنافذ بسبب قدراته الكبيرة، وخصوصا منصاته الإعلامية المتكاثرة.

درسنا في التاريخ الكثير عن الشعر. ثمة أوجه كثيرة للشعر تعبر عن مراحل مختلفة. لكننا قبل أن نصل إلى العصر الحديث، يقولون لنا إننا مررنا ببعض الانحطاط. خذ هذا البيت الذي ينسب إلى أبي الحسن ابن سويون ويضرب به المثل عن تردي حالة الشعر:

كأننا والماء من حولنا  
قوم جُلوسٌ حولهم ماءٌ

ابن سويون عاصر حكم السلطان الماليك في مصر. دعونا نتخيل تلك الفترة من تقلبات الحكم ورد فعل الشاعر أمامها. فباسم الإسلام والخليفة العباسي المختفي، تقلد 14 سلطانا مملوكيا حكم مصر. كيف سيكون رد فعل الشاعر وكيف يمكن أن يكون جدبا.

استقوى على الواقع بالعبث. الأيديولوجيا مخيفة، كما صرنا نعرف ربما أكثر من غيرنا. نستطيع أن نوجه حياة الأمم بطريقة لا يمكن تخيلها.

خذ مثلا الأهرامات. استطاعت الأسر التي حكمت مصر من أن توجه البلاد كلها لمشاريع وطنية هدفها من بيني القبر الأكبر والقبر المثالي هندسيا. أراد الفراعنة أن يخلدوا، فجعلوا الخلود مشروعاً أيديولوجياً بالبدائية، ثم سخروا كل إمكانيات الدولة لبناء أهرامات أكبر وأدق. الجهد الهندسي والمالي للدولة، باللغة المعاصرة، كله مخصص لبناء قبر. حلم الجماهير هو إنجاز القبر الذي سيرقد فيه الفرعون انظروا للحياة الأبدية. مئات الألوف من المصريين اشتغلوا لعشرات السنين في مشروعهم القومي-الحلم.

لكن، دعونا نتحرك في شريط الزمن إلى الأمام، ونصل إلى قاعة من قاعات الفرعونيات في المتحف البريطاني في لندن. سنشاهد الكثير من التماثيل الجميلة للفرعنة أو وزرائهم أو أبناءهم أو زوجاتهم. قطع فنية حقيقية بالمقاييس التشكيلية المعاصرة. لكن في ركن من أركان صالات العرض سنجد صندوقاً زجاجياً فيه تابوت ومومياء. هكذا يتحول المشروع القومي لمصر الفرعونية إلى مجرد فرجة لزوار المتحف البريطاني وكثير من المتاحف المصرية. فلنفترض جدلاً أن مومياء الفرعون المسجى فتحت

نواجه اختناقاً بسبب الأيديولوجيا. حينما نتوجه، نجد أن الأفكار المقبولة بإطارات دينية وسياسية، بل وحتى اجتماعية، تطاردك. الحياة اليوم، في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على وجه الخصوص أو في أرجاء العالم، عادت لتحكم بالمبرر الأيديولوجي. حتى الردود عليها أيديولوجية. في مواجهة سد ديني مترسمة، تجد ردوداً علمانية مترسمة. ربما لا يقل الحديد إلا الحديد، ولكن انظروا إلى كميات حديد الخرقة الإنسانية المتراكمة من هذه الجهات. المشهد يبدو وكأن العالم تحول إلى أكوام متعاقبة من الحديد الصدي من معارك سابقة.

مقابل هذا التمرس  
الأيديولوجي، لماذا لا  
نحاول شيئاً من العبثية؟  
لسنا مضطرين لإنتاج  
أيديولوجيات مضادة. دعونا  
مثلاً نتلهم بأشياء أخرى  
ساذجة أو غير منطقية أو  
بلا معنى قائماً بذاته

لا نستطيع البت بأسلوب المواجهة للخروج من الأسر الأيديولوجي السائد. ربما أتمكن من الحديث عن أساليب الكشف، هذه مهمة صحفية وأخلاقية. التستر بالدين أو بالاشتراكية أو بالقومية أو حتى بالشعبوية هو الطبيعي مثل هذه الأشياء. الكشف عنها هو الموقف الطبيعي المضاد. يحتاج إلى دقة وموضوعية لتكون الحقائق واضحة أمام الجميع، بمن فيهم ممن يؤمنون بتلك الأيديولوجيات.

لكن ثمة جانباً يمكن الخوض فيه. مقابل هذا التمرس الأيديولوجي، لماذا لا نحاول شيئاً من العبثية؟ لسنا مضطرين لإنتاج أيديولوجيات مضادة. دعونا مثلاً نتلهم بأشياء أخرى ساذجة أو غير منطقية أو بلا معنى قائماً بذاته. إنه نوع من التشتيت الذهني الذي يقاوم



## لوحة سارة شمة

المظلمة في أوروبا أو تركيا عصور ما بعد التنوير لهتلر وموسوليني وستالين. الفرق أنها مستمرة وتحتاج موقفاً عبثياً في مقاومتها بدلاً من مشاريع أيديولوجية متكاملة ورسينة. "وفاة الماء بعد الجهد بالماء". لم لا نقولها ونضحك. بدلاً من أن نستمتع إلى خطبة عصماء لا معنى لها.

السوفييتي. ثم تحولت الأمور إلى ما يشبه النكت تسخر من فهم لأمور من بوابة أيديولوجية لا ترحم وتعتبر أن ما كان هو من صميم الحس الوطني. الجداريات الإيرانية عن الشهداء والأئمة ومقاومة الاستكبار العالمي هي جهد أيديولوجي مثله مثل ما تركه القدماء لنا من صروح، أو بقايا العصور

أهراماته صارت مزاراً سياحياً لجمع المال واستقطاب السياح وأنها مواقع لأخذ صور سيلفي لا أكثر. سيتكرر الأمر في أوروبا التي اغدقت على نفسها بالكنايس وباللوحات الدينية. ثم عادت وأغدقت بشكل أو آخر بترميزات الحكم النازي والفاشي الإيطالي والشيوعي في الاتحاد

عيناها في تلك اللحظة ووجدت وجوه السياح الصينيين واليابانيين الشهيرين بكاميراتهم وصورهم وهي تطل عليها. أكيد أن الفرعون المعني سيجس بالإجباط وسيستسخر مشروعه الفرعون ليرى حالة الفوضى على حافة نزلة السمان في الجيزة، سيجد أن

## الأخلاق والسياسة توافق أم تعارض

ينظر إليها فقط كعامل ضبط وتعديل. بيد أن السياسة ليست ملكاً للدولة وحدها، يقول فريش ثالث، بل للكيفية التي يشارك بواسطتها المواطنون أيضاً، وأفضل السياسات الممكنة ليست الأتجع ولا الأعدل، بل تلك التي تكون قادرة على تكوين مدينة حقيقية والحفاظ عليها. وبذلك تغدو الأخلاق ضرورية لوجود المجموعة السياسية، فالسياسة في الواقع لا تعني فقط مجمل الوسائل والمؤسسات التي تحكم الدولة بواسطتها، كما أن السلطة لا تمثل السياسة إذا قامت على القوة وحدها، بل لا تكتسب شرعيتها إلا بقبول المواطنين بها.

ومن هنا تكون أفضل السياسات هي تلك التي تسمح بخلق مجموعة، أي كيان سياسي يستند إلى روابط المواطنين في ما بينهم، والتزام كل واحد منهم بالحفاظ عليها. ولا يمكن لذلك الالتزام أن يتم إلا متى قبل كل فرد بعدم تلبية مصلحته الخاصة بشكل الي، والتخلي عنها لفائدة المصلحة العامة. فلا سياسة حقيقية من دون التزام حميم لكل فرد نحو المجموعة التي ينتمي إليها، واقتناع الأفراد جميعاً بانتمائهم إلى مجموعة. وهذا ما عبر عنه روسو في العقد الاجتماعي، وما اقترحه الأميركي جون رولز (1921-2002) حين دعا إلى توافق حول مفهوم للعدل يمر عبر نقاش عام تضع إنزله المجموعة الوطنية المبادئ المشتركة للعدل بصرف النظر عن القناعات الأخلاقية المختلفة لهذه الفئة أو تلك.

وصفة القول إن الأخلاق هي أفضل السياسات، فهي شرط أساس لوجود مجموعة سياسية حقيقية، ينجم عنها كل ما هو خير، فشرعية ممارسة السلطة، وعدالة السياسات المتبعة، ونجاحها، يمكن أن تحظى عندئذ بانخراط كل فرد في مشروع مشترك.

ما يتناه من بعده الفيلسوف الأميركي روبرت نوزيك (1938-2002) حين أكد أن الدولة لا يحق لها أن تتدخل في ما يرجع بالنظر إلى الأخلاق. ويذهب أبعد من ذلك حين يعتبر أن تدخل السياسة في المسائل الأخلاقية قد يكون خداعاً يراود منه إضفاء شرعية غير مستحقة على نظام سياسي، كمراقبة الحريات وما يتداول في أوساط المجتمع من أسكار. وهو ما ذهب إليه نيتشه أيضاً في "جينالوجيا الأخلاق". أي أن الأخلاق غريبة عن السياسة، التي

بتخبر أحد أمرين: إما إقصاء الأخلاق من الحقل السياسي، وإما استبعاد السياسة عن الأخلاق لكي تضمن فعاليتها، استناداً إلى ما نظر له ماكيافيلي في كتابه "الأمير"، حين وقف بوضوح مع الجدوى ضد الأخلاق، حجته في ذلك أنه ما كانت غاية ممارسة السلطة هي الاستقرار، فإنها تتلخ تلك الغاية بالقوة لا بالعدل، والخير في رايه الأي في الحاكم بوعوده إذا لم تكن الظروف ملائمة، أو أن يضحى بيريء عند الضرورة لإقرار السلم الاجتماعية. وهو

بالمجتمع نحو غاية تحددها الدولة. ومن ثم، فالسياسة الجيدة هي سياسة فعالة في المقام الأول، تنتج الآثار المرجوة أو المشوذة، ولا سبيل عندئذ إلا بفصل الأخلاق عن السياسة، لأن مهمة السياسة في رأي هذا الفريق هي التصرف في شؤون الدولة، بينما الأخلاق هي من مسؤولية الأفراد، فليس بالعواطف النبيلة تحقق الدولة ما ترجو، لاسيما في غياب مبادئ أخلاقية كونية وموضوعية يلتقي حولها الجميع، ولا مجال عندئذ إلا

تحتاج تونس هذه الأيام حصى الانتخابات، الرئاسية، ثم التشريعية، وقد بدأ الصراع يتأجج بين المتنافسين، حتى قبل انطلاق الحملة. ولكن رغم بعض التجاوزات، فإن التونسيين يرجون تحلي النخبة السياسية على اختلاف مشاربها بقدر من الاستقامة الأخلاقية. فهل تتوافق الأخلاق والسياسة أم تتعارضان؟

أبوبكر العيادي  
كاتب تونسي

يهيمن في هذه الورقة أن ننظر إلى مسألة اتصال الأخلاق بالسياسة أو انفصالها عنها من زاوية فلسفية، لننعم الرأي في حقلين يختلفان نظرياً، لكن السياسة لا تعني فقط تسيير الدولة للمجتمع بطريقة عمودية، بل تعني أيضاً تأسيس مجموعة سياسية، تستند إلى علاقات أفضلية يمكن أن توجد بين المواطنين، والتزامهم داخل الفضاء العام. بعضهم يرى أن السياسة القائمة على الأخلاق هي أفضل السياسات الممكنة، فالأخلاق هي الشرط الأساس لجعل سياسة ما عادلة، ولا يتصورون أن تكون السياسة كذلك إذا خالفت أبسط القواعد الأخلاقية كالصدق والأمانة والأثرة. فإذا كانت السلطة السياسية تدار عن طريق تفويض، وهو النموذج المؤسسي الأكثر استقراراً في الديمقراطية التمثيلية، فإنها تستوجب الثقة، لأن المواطنين لا يمكن أن يعهدوا بإرادتهم إلى نواب إلا إذا كان هؤلاء يمارسون عهدتهم بامانة، ويسعون حقاً للمصالح العام، ويعبرون في أقوالهم وأفعالهم عن إرادة المواطنين، دون أن يستغلوا موقعهم لخدمة مصالحهم الشخصية. ومن ثم، فالأخلاق في رأيهم ضرورية لممارسة السلطة السياسية لكي لا تتحرف عن غاياتها، فتغدو خاضعة للأهواء، وتتحول إلى أداة لتحقيق



ميكافيلي: لا مكان للأخلاق في السياسة